


جهود المعممار سنان في مكة والمدينة

د. محمد حرب

 كلمة «معمار» في اللغة التركية تعني المهندس المعماري وتعني البناء، وهي كلمة شائعة الاستخدام. والمعمار سنان يُعد من أبرز الذين كونتهم الثقافة الإسلامية العثمانية، وكان كبير المعماريين في الدولة العثمانية في عهده. ولد عام ١٤٩٠م وعمر ما يقرب القرن إذ توفي إلى رحمة ربه عام ١٥٨٨م. وعاصر عهود خمسة سلاطين عثمانيين هم: بايزيد الثاني، وسليم الأول فاتح مصر والشام، وسليمان القانوني، وسليم الثاني بن سليمان القانوني، ومراد الثالث^(١).

وهناك اختلاف حول أصل سنان لكن الثابت إسلامه ومكان مولده وتاريخه فقد كان من ضمن الفتيان النصاري الذين جندوا في الجيش العثماني (الدوشيرقه) وأسلم عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره، ف تلقى تعليمًا فنيًا وعسكريًا عثمانيًا.

وأُتيحت الفرصة لسان للاطلاع على تراث الشعوب الأخرى غير العثمانيين فشهد آثار البيزنطيين في العاصمة العثمانية وشاهد آثار السلاجقة وفنونه المعمارية في الأناضول ولما اشترك سنان في الحروب العثمانية شرقاً وغرباً عمقت تجربته الفنية أيضاً فهو قد اشترك في موقعة چالديران ١٥١٤م ضد الإيرانيين. ودخل العثمانيون العاصمة الإيرانية وقتها وهي «تبريز» فأثارت مبانيها المعمارية الصفوية اهتمام سنان لخصائص الفن الإيراني. ورافق الجيوش العثمانية في دخولها حلب ودمشق والقاهرة في حملة السلطان سليم على الشام ومصر، وانتبه سنان إلى الطرز المعمارية العربية والملوكية، وتجول كثيراً بين أهرامات الفراعنة في مصر، واشترك في الفتح العثماني لجزيرة رودس. وهناك شاهد في عهد السلطان سليمان القانوني روائع المعمار اليوناني واشترك في فتح العثمانيين لبودابست عاصمة المجر، فشهد الفنون المجرية العثمانية، وفي بودابست بالذات كان سنان يتجول في الكنائس التي حولها العثمانيون إلى مساجد وتأمل فيها كثيراً. واشترك في حملة السلطان سليمان القانوني على العراق سنة ١٥٣٤م، فأثرى سنان تجربته الفنية باطلاعه على الإبداع المعماري في بغداد، كما رافق الأسطول العثماني في حملاته البحرية على السواحل الإيطالية^(٢).

وفي مخطوط «تذكرة الأبنية» - وهو كتاب أملاه المعمار سنان على صديقه النقاش «ساعي مصطفى جلبي» - بيان بأعمال سنان، وتبلغ (٤٤١) عملاً تحت إشرافه وتخطيطه موزعة في مختلف أرجاء الدولة العثمانية، وكذلك في تحفة المماريين له أيضاً.

وتتوزع أعمال سنان بين الجوامع والكتليات - والكتلية في المعمار العثماني تعني مجموعة المنشآت الخيرية والمدارس التي تحيط بالجامع - وسدود المياه والحمامات وبيوت القوافل والجسور والطرق وسبل المياه والأضرحة.

وأشهر أعمال المعمارستان جامع شهرزاده وجامع السليمانية في إستانبول وجامع أدرنه - قمة الفن المعماري الإسلامي - في أدرنة.

وقد أقيم في البلاد العربية تحت إشراف المعمار سنان تخطيط مايقرب من ٢١ عملاً موزعة بين السعودية وفلسطين وسوريا والعراق .

وهذا المقال محاولة لتفصى ما عمل في مكة المكرمة والمدينة المنورة تحت إشراف المعمار سنان وتخطيطه^(٣).

آثاره في المدينتين المقدستين

أولاً : في مكة المكرمة

١ - التعميرات العامة :

أمر السلطان العثماني سليمان بن سليم المعروف بالسلطان سليمان القانوني في عام ٩٥١هـ (١٥٤٤/١٥٤٥هـ) بتعمير المطاف بالرخام المرمر^(٤) وأرسل إلى الحرم المدني منبراً مصنوعاً من الرخام المرمر أيضاً^(٥)، عليه الآية الكريمة: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٦) كما أمر السلطان القانوني بعد مكة المكرمة بالماء عن طريق عين ماء أطلق عليها «العين» وأنفق في هذا - عام ٩٦٧هـ، ١٥٥٩م/١٥٦٠م - مئة ألف ذهب^(٧).

ولما أصابت الحرائق والسيول المسجد الحرام بأضرار بالغة، أسرع السلطان سليم الثاني ابن السلطان سليمان القانوني، بإصدار الأمر، إلى المعمار سنان، بتعمير الحرم المكّي تعميراً كلياً. وتاريخ هذا الأمر (إرادة سنيّة) هو ٩٧٩هـ/١٥٧١م واستمر العمل بموجبها حتى عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م يعني أربع عشرة سنة كاملة. ومن الأحكام التي وردت في هذه الإرادة السنية: هدم القباب والأسقف المصنوعة من الخشب ليحل محلها أعمدة من الرخام المرمر وإنشاء قباب على هذه الأعمدة وأن تأتي هذه الأعمدة الرخامية من مصر، وكان واليها

العثماني هو سنان باشا. وقد انتدب هذا الباشا لهذا الأمر الأمير المصري أحمد بك. وكانت دائرة الحرم المكي محاطة بقباب مقامه على ثلاثة خطوط وأربعة جدران في شكل شبه مستطيل. وكان طول الحرم الشريف من باب السلام - في الجهة الشرقية - حتى باب العمرة - في الجهة الغربية - ٤٠٠ (أرشون) ذراع أما العرض فيبلغ ٣٦٠ (أرشوناً) ذراعاً، ويبدأ من باب الصفا الواقع في الجهة الجنوبية من الحرم حتى باب الزيادة الموجود في الطرف الشمالي. تحوي هذه الدائرة أربعين باباً وسبع مآذن و ٥٠٠ قبة وكان الحرم المكي بدون الميدان المحيط بالكعبة يستوعب ١٥٠,٠٠٠ حاج تحت قبابه. وكانت كل من الأرض الرملية وأطراف الكعبة، والمدارس تستوعب ١٥,٠٠٠ حاجاً؛ وعلى ذلك فيتسع الحرم المكي في ذلك لـ ٣٠٠,٠٠٠ من المصلين.

وفي هذه الفترة تم توسيع فناء الحرم وزين داخل القباب بخطوط ذهبية ووضعت في الفناء أسطوانات رخامية ملونة لتوفير الضوء. وعمرت المآذن وأقيمت درجات على الأبواب لحماية المسجد الحرام من مياه السيول حيث إن المسجد يقع في منخفض هو من أكثر وديان مكة انخفاضاً^(٨).

وقد احتفظ المسجد الحرام في مكة المكرمة بشكله هذا الذي صممه له المعمار سنان طوال أربعة قرون متواصلة. تخللها بعض التعميرات هنا وهناك. في عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م عندما بدأ مشروع توسعة المسجد الحرام على عهد الملك خالد ابن عبدالعزيز آل سعود - يرحمه الله - وقد روعي في مشروع الملك خالد الاحتفاظ بعمل المعمار سنان، وكانت الأقسام الجديدة المضافة فيه تقع خارج الأروقة العثمانية القديمة وأحاطت بها^(٩).

وتذكر تحفة المماريين في رصدها لأعمال المعمار سنان في بابها الأول، عبارة ترميم الكعبة المعظمة في مكة بناء على الأمر السلطاني الصادر إلى والي مصر علي باشا، فقد أرسل رئيس المماريين في مصر - في ذلك الوقت - وهو

قرا مصطفى، إلى مكة، وتم ترميم الأماكن المطلوب ترميمها في الكعبة المعظمة^(١٠).

وكذلك يذكر المصدر نفسه مسألة: ترميم الكعبة المعظمة في عهد السلطان مرادخان^(١١).

٢ - مدرسة السلطان سليمان خان بمكة المكرمة :

تلاصق هذه المدرسة، المسجد الحرام، وباسمها يسمى واحد من الأبواب التسعة عشر من المسجد، وسميت مؤذنة من المآذن السبع بها - على ما يذكر المكي^(١٢)، وعمل فيها أبواب أربعة لكل مذهب من المذاهب الأربعة باب للمفتين به، وبنى قاعة درس واسعة، وكان من شروط وقف هذه المدرسة أن يكون لكل خمسة عشر طالباً معيد واحد ومدرس واحد^(١٣).

٣ - مطعم «خاصكى سلطان» الخيري:

وقد ورد اسم هذا المطعم - والمطعم الخيري في اللغة التركية هو «عمارت» في رحلة أولياجلبي^(١٤) ورغم أن المهندسان بولند ونهال أولوانكين قد ذكرا عبارة: «وليس لنا لدينا معلومات قط عن مكانها ولا الوقت الذي هدمت فيه»^(١٥) إلا أن محمد الأمين المكي يذكر لنا معلومات أخرى عنه فيقول إنها تطعم آلاف الفقراء من الحجاج وكذلك يطعم الذي لا عائل لهم، والمرضى^(١٦) ويذكره المعمار سنان في الباب الرابع من تحفة المعمارين: «في بيان عدد المطاعم الخيرية»، في عبارة وجيزة للغاية هي: «المطعم الخيري الذي أقامته (خاصكى سلطان) - عليها رحمة الله - في الكعبة المعظمة في مكة»^(١٧).

٤ - حمام السلطان سليمان :

وهو مازال قائماً في مكة المكرمة، وهو في لسان العامة معروف باسم «حمام النبي» ويذكر أيضاً باسم حمام القماشية ويذكره «أوليا جلبي» خطأ باسم حمام

فاتح اليمن سنان باشا. وقد قام المهندسان التركيان أولوانكين بترميمه عام ١٩٨٤ ميلادية ويذكران - نقلاً عن بعض السعوديين المحيطين بالحمام - أنه كانت له لوحة نقش تذكارية تحمل تاريخ ٩٧٠هـ/١٥٦٢م، ويذكر هذان المهندسان أن بطل الآن استخدام الحمام، ويستخدم الآن استخدامات عدة، مصرف ودكان ومخزن، وهو يحمل في شكله الطابع التركي^(١٨).

٥ - حمام صقؤللو محمد باشا :

وسمى بحمام العمرة لأنه قريب من باب العمرة في المسجد، وقد هدم أثناء توسعة الملك خالد عام سنة ١٩٧٥م.^(١٩)

٦ - مدرسة صقؤللو باشا :

وأقامها الصدر العثماني الأسبق صقؤللو محمد باشا وذكر المكي أن الدراسة كانت قائمة فيها^(٢٠).

٧ - مدرسة داود باشا :

ذكرها المكي أيضاً : وقال إنها على عهد السلطان سليمان القانوني وإدارة المعمار سنان وأنها موجودة ومعمرة بالعلم وطلابه^(٢١).

٨ - رباط الخيل وعين ماء له :

وهو الرباط المشهور باسم الهندود، بجانب منخله عين ماء. والرباط مكون من طابقين وحوش مركزي على امتدادين في كل امتداد غرف متجاورة. والغرف التي في الدور الأرضي ناحية الشارع مستخدمة دكاكين. على بابه الآن كتابة هي:

لله ما أبها رباطا قد نشأ	عمرت به أم القرا بلد الغفور
قد شاده الماس اغا ابن الخدا	بخش على خان الذي رج الشكور
لله أوقفه وقال لمبطل	الرب ان ابطلت ارخ إلى غيور

وصلاة رب على النبي وآله ما غنت الورق ساحات القصور
وعلى الصحاب وتابعيهم ماشجت قمرية سحرا بأفنان الوكور^(٢٢)
وقدر قم الرباط المهندسان ألوانكين عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

ثانياً : في المدينة المنورة

١ - الأعمال العامة :

كان السلطان سليمان القانوني قد أمر بتجديد سور المدينة المنورة والقلاع بها، ووضع في ذلك لوحة نقش تذكارية عليها آية : ﴿مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢٣)، وأنشأ أثناء هذا، في السور المذكور، أربعة أبواب هي: الباب الشامي - الباب المصري - الباب الصغير - باب البقيع^(٢٤).

ثم قامت عمارة في الحرم المدني في عهد القانوني أيضاً وتناولت باب الرحمة وباب النساء حيث أقيم على جانبيه برجان من خارج المسجد لتقويته وتدعيمه. وهدم الجدار الغربي وأعيد بناؤه مع باب الرحمة. وأما الجدار الشرقي فقد عملت فيه بعض الإصلاحات والترميمات من أسفله فقط، وهدمت المنارة الشمالية الشرقية (المنجارية) وأقيمت مكانها المئذنة السلمانية وكان عمق أساسها ثلاثة عشر ذراعاً بذراع العمل وهو يساوي ذراعاً وثلاث من ذراع الأدمي تقريباً حيث يبلغ طوله ٥٦,٦ سم أي أن عمق الأساس يساوي ٨,٥٣م أما العرض فسيبعة أذرع أي أربعة أمتار تقريباً، وكتب على باب الرحمة وباب النساء تاريخ بنائهما واسم السلطان سليمان بن سليم. كذلك عملت أعمال البياض للجدران والأسطوانات وكتب اسم السلطان على السقف المجاور للجدار الغربي. وأرسل السلطان «الأهله» توضع أحدها على القبة في تاسع عشر شوال سنة ٩٤٦هـ ومعه خمسة أهله لكل منارة هلال وهلال للمنبر. وهذه الأهله من النحاس المطلي بالذهب وطلاء الأهله ذهب كلف ١٨٠٠ ذهب^(٢٥).

وأرسل السلطان سليمان القانوني، إلى المسجد النبوي في المدينة المنورة منبراً مصنوعاً من الرخام المرمر عام ٩٥٦هـ وعليه آية (أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم)^(٣٦).

وكان المهندس المعماري المباشر هو علي بن تيك، أما الإشراف فقد كان لتاج الدين الخضير. واحضرا معهما من مصر لوازم العمارة ونفقانها^(٣٧).

ومع هذه العمارة تم ترميم الروضة الشريفة وغُملت وزرة على الحجرة النبوية وأصلح رصاص القبة على القبر النبوي^(٣٨).

وأُنشأ السلطان سليمان المحراب السلیماني في الحرم النبوي باسمه^(٣٩).

٢ - حمام صفؤللو محمد باشا :

ويقع في حي الأغوات ويعرف أيضاً باسم حمام طيبة أو حمام يثرب وحُدث أهل المدينة، المهندسين أولوانكين بأن للحمام لوحة تذكارية تحمل تاريخ ١٢٥٦هـ = ١٨٤٠م ويُرجح أن يكون هذا التاريخ تاريخ تجديد وتعمير وليس تاريخ بناء^(٤٠)، لأن المعمار سنان قد ذكره في تحفة المعمارين في الباب العاشر في بيان الحمامات^(٤١).

وكان هذا الحمام مستخدماً حتى عام ١٩٨٦م. وفي ذلك العام هُدم حي الأغوات حتى تتسع جوانب المسجد النبوي لزوم توسعته، وبالتالي هُدم الحمام^(٤٢).

٣ - مطعم خُرم سلطان الخيري :

وليست لدينا معلومات عنه إلا ما ذكره الرحالة أولياچلي في قوله: ومطعم خاصكى سلطان (خُرم سلطان) الخيري. ويوزع فيه الطعام ليلاً ونهاراً لكل شخص من الأكل ثلاث مغارف، ولحم خرقان، وأرز، وزرذده، وعاشوراء^(٤٣).

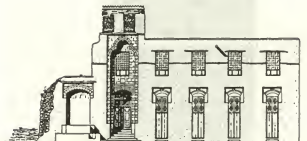
● واجهة رباط الخيل ●



النقش التذكاري في رباط الخيل



رباط الخيل : مقطع (نقلًا عن أولانكين)



رباط الخيل : الجهة (نقلًا عن أولانكين)



- خريطة مصرية من عام ١٩٤٧م ويظهر فيها:
- ١ - المسجد الحرام .
 - ٢ - رباط الخيل .
 - ٣ - حمام صقو للو محمد باشا (حمام العمرة) .
 - ٤ - مدرسة السلطان سليمان خان .
 - ٥ - حمام السلطان خان (حمام القشاشية) .

الهوامش

١ - سنوات حكم هؤلاء السلاطين هي على التوالي كالآتي :

بايزيد الثاني ٨٨٦ - ٩١٨ هـ - ١٤٨١ - ١٥١٢ م

سليم الأول ٩١٨ - ٩٢٦ هـ - ١٥١٢ - ١٥٢٠ م

سليمان القانوني ٩٧٤ - ٩٨٢ هـ - ١٥٦٦ - ١٥٧٤ م

مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٣ هـ - ١٥٧٤ - ١٥٩٥ م

وفي معنى كلمة معمار انظر شمس الدين سامي، قاموس تركي، درسعادت ١٣١٧ هـ.

٢ - تواريخ هذه الحروب هي كالآتي :

جالديران ٩٢٠ هـ - ١٥١٦ م

مرج دابق ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م

فتح رودس ٩٢٨ هـ - ١٥٢٢ م

فتح المجر ٩٣٢ هـ - ١٥٢٦ م

فتح بغداد ٩٤١ هـ - ١٥٣٤ م

وعن حياة المعمار سنان في العسكرية وتأثير ذلك في تكوينه الفني انظر،

Okray Aslanapa, Osmanli Deuri Mimarisi, Ist. 1986, S. 178.

٣ - أعمال المعمار سنان في البلاد العربية :

مكة المكرمة ٨ ثلاث مدارس ومطعم خيرى ورباط

المدينة المنورة ٢ حمام ومطعم خيرى

القدس ٣ جامع ومدرسة ومطعم خيرى

البصرة ١ جامع

دمشق ٢ جامع ومدرسة

حلب ٢ جامعان

طريق حلب ٦ قصر وضريح وتكية وجامع ومدرسة وحمام

انظر محمد حرب؛ العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص: ٢٢٨، دار القلم دمشق ١٤٠٩

- ١٩٨٩ م.

٤ - محمد الأمين المكي، خلفاى عظام عثمانية حضراتك حرمين شريفينده كي آثار مبروره ومشكورده هما يوتلرندن باحث تاريخي برأثر ص: ٢٥ مطبعة عثمانية، درسماعات ١٣١٨هـ.

٥ - المرجع السابق نفسه ص: ٢٥ أيضاً.

٦ - «التعل» آية / ٣٠.

٧ - المرجع السابق نفسه، الصفحة نفسها.

٨ - Nihal Uluengin ve Bulent Uluengin, Mimâr Sinân Mekke ve Menede- ki Eserli s. 345-349

Mimar Sinan Donemi Türk Mimari ve Sanati, Türkiye Is Bankasi Kultur Yayinlare Istanbul, 1988.

٩ - والمكي ص: ٢٩ - ٣٠ المرجع السابق وصفحاته نفسها.

١٠ - Zeki Sonmez, Mimar Sinan ile ilgili Tarihi Yazmalar - Beleger, s. 82, Mimâr Sinan Universitesi Yayunlar, Istanbul 1988.

١١ - المرجع نفسه ص: ٨٣.

١٢ - محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص: ٢٧.

١٣ - المرجع السابق نفسه والصفحة نفسها. انظر أيضاً زكي سوغز - تحفة المعماريين وهو مرجع سبق وروده حيث ذكر سنان أن من أعماله في مكة: مدرسة السلطان سليمان في مكة المكرمة في الباب الثالث من أعماله الذي أسماه: المدارس ودور الحديث ودور القراء، ص: ٨٧.

١٤ - Evliya Celebi, Seyahatnâme, Zuhurî Danışmans s.50 c.14, Zuhurî DanismanYayunemi, Istanbul 1971.

١٥ - Uluenginler المرجع السابق بصفحاته نفسها.

١٦ - محمد الأمين المكي: المرجع السابق نفسه ص: ٢٨.

١٧ - زكي سوغز، مرجع سبق ذكره في تحفة المعماريين الباب الرابع في بيان عددالمطاعم الخيرية.

١٨ - نقلت هذه العبارة من المهندسين التركيين أولواتكين في مقالهما المذكور سابقاً بصفحاته المشار إليها نفسها.

١٩ - يذكره المعمار سنان في الجزء العاشر من تحفة المعماريين في زكي سوغز ص: ٨٢ والذي ذكر هدمه المهندس أولواتكين في مقالهما القصير السابق ذكره، والذي أفدنا من الصورة الواردة به والتي أخذنا بعضها هنا.

٢٠- محمد الأمين المكي، المرجع السابق ص: ٢٧.

٢١- المرجع السابق في الصفحة نفسها.

٢٢- أولو أنكين، ٣٤٧ - ٣٤٨. وذكرها المعمار سنان في تحفة المعمارين كما يلي:

«خان للغواقل وعين مائها بجانب عين ماء عرقا الفاضل البركات في الكعبة المعظمة في مكة»، انظر زكي سوغز ص: ٩٤.

٢٣- الآية ﴿إِلَٰهَ الَّذِينَ سَلَّمُوا وَلَئِنَّهُمْ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ طَرَحًا﴾. النمل/٣٠.

٢٤- المكي ٢٨.

٢٥- محمد السيد الوكيل (الدكتور) المسجد النبوي عبر التاريخ ص: ١٥٧ دار المجتمع، المدينة المنورة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٢٦- المكي ص ٢٥ والآية في النمل / ٣٠.

٢٧- الوكيل ص: ١٥٧.

٢٨- الوكيل ص: ١٥٨.

٢٩- المكي ص: ٢٨.

٣٠- أولو أنكين ص: ٣٤٨.

٣١- زكي سوغز، ص: ٩٢.

٣٢- أولو أنكين ص: ٣٤٨.

٣٣- أوليا جلبي الجزء ١٣، ص: ٤٠٣.

★ ★ ★

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: باللغة العربية :

١ - محمد السيد الوكيل (دكتور) المسجد النبوي عبر التاريخ، دار المجتمع للنشر والتوزيع. المدينة المنورة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٢ - محمد حرب (دكتور) العثمانيون في التاريخ والحضارة، دار القلم، دمشق ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

ثانياً : بالعثمانية :

١ - محمد الأمين المكي : خلفاء عظام عثمانية حضراتك حرمين شريفينده كي آثار مبروره ومشكورة هما يونترندن باحث تاريخي برأئردر. درسمادت مطبعة عثمانية ١٣١٨.

ثالثاً : باللغة التركية :

- 1- Evliya Celebi, Seyahatname, Zuhuri Danisma, Danisman Yayunevi, Istanbul 1971.
- 2- Oktay Aslanapa, Osmanli Deuri Mimarisi, Istanbul 1986.
- 3- Zeki Sonmez, Mimar Sinan Donemi Türk Mimarligi ve Senati, Türkiye Is Bankasi, Istanbul 1988.
4. Zeki Sonmez, Mimar Siunan Universitesi Yayin Lari - Matbaasi, Istanbul 1988.

